جهود النحويين في خدمة القرآن الكريم

ابن هشام في المغني نموذجا

د.عبد الله الدكير

كلية الآداب ــ مكناس ــ المغرب.

بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الحمد لله الذي جعل لنا القرآن مأدبة، والصلاة والسلام على من أدبه ربه فأحسن تأديبه، وعلى آله وصحبه وإخوانه وسائر من اتبع سبيله ودأب دأبه.

ملخص هذا العنوان أن الجهود كثيرة والخدمة نوعية، وهي خالصة للقرآن، مُلَخَّصَة لدى مؤلِّف، في مؤلَف.

وملخص هذه الكلمة أن النحو نشأ غيرة على القرآن، وأنه تأويل للكلام، وتدبر للقرآن، وقد كان زمانا شورى بين من أحب التَّبَين والبيان، وما أن استقام عوده حتى جُن جنونه، فترجح بين الغاية والوسيلة وتأكد قصوره، ثم عقله أهله، فنضج واستتب أمره، فكان نحو بيان ودلالة لدى ابن هشام في المغني، فالمغني اسم على مسمى، امتاز بجدة ترتيبه القائمة على المعنى، وببلاغة تجميعه المؤكدة للمعنى، وببلاغة عنايته بقصد الخطاب وأغراضه الخادمة للمعنى، وبتصحيحاته وترجيحاته المحصنة للمعنى، وكأنه كتاب تفسير نحوي، تناثرت فيه أحكام شتى لنحو القرآن، معلنة أن القرآن يختار له، فهو كله كالسورة الواحدة، والسورة كالآية، وكل قراءة بمثابة آية.

وخلصت هذه الكلمة إلى اقتراحات، تأمل أن تجد لها آذاناً صاغيات، والحمد لله الذي تتم بحمده الصالحات.

النحو غيرة على القرآن:

أحسب أن الجهود التي بدلت وتبدل إنما كانت غيرة على القرآن الكريم، فقد كان السلف والخلف حِرَاصا على تعلم القرآن وتعليمه، كل يعمل على شاكلته، له وجهة هو موليها، فنشأت العلوم بسببِه، وحييت تحت ظلالِه، وتطورت في رحاب سلامِه، وخلصت بإخلاصِه.

ولعل أول اجتهاد علمي هو ما إليه هدي، أبو الأسود الدؤلي، من جهد علمي علامتي، أعني النقط والإعجام [1] لكل القرآن، ابتغاءَ الضبط والفرقان، ودفعَ غائلة زيغ اللسان، وما يترتب عليه من الفساد في البيان، أو من أدواء اللحن التي لم تكن في الحسبان، وهي تستزل عقل الإنسان.

وأراني في هذا المقام العجل لا أعنى بطبيعة الجهود النحوية التي كانت بعد أبي الأسود وطلبته، إلى سيبويه وطبقته، لأن تلك الأعمال عدمت أو ضاعت، إن هي بالنسبة إلينا–اليوم- إلا أسماء سميت، وإن كانت في كتب التراجم والسير مدحت[2].

النحو تدبر للكلام:

خير كلام تدبر ويتدبر القرآن الكريم، أنزله الله جل جلاله، وتعبد عباده بتلاوته، وحضهم على تدبره (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) سورة ص الآية 29، ولقد كان العرب زمان نزوله في التدبر آية، قد

---

[1]- وذلك قوله لكاتب فطنٍ: ((إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه، أعلاه، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت شفتي فاجعل النقطة من تحت الحرف، فإن أتبعتُ شيئا من ذلك غنةً فاجعل مكان النقطة نقطتين)) إيضاح الوقف والابتداء40/1 وإنباه الرواة5/1، والظاهر أن عبارة فتح الفم وضمه وكسره هي التي هدته، ومَن بعدَه إلى بعض الظواهر الإعرابية، إذ قام النحو العربي على الحركات، وهي علامات الإعراب، وأمارات الوظائف، وآثار العوامل.

[2]- قال الخليل بن أحمد الفراهيدي:

ذهب النحو جميعا كله غير ما أحدثه عيسى بن عمر
ذاك "إكمال" وهذا "جامع" فهما للناس شمس وقمر

الفهرست لابن النديم ص:87، المزهر للسيوطي392/2، طبقات الزبيدي ص:42.

بلغوا الغاية، يدركون بالمنة والطباع، ما لا يدركه الباحثون عن طول المباحثة والسماع، وإنهم لكذلك يجدون بالقوة، أحسن مما يصل إليه النحاة بالصنعة.[1]

فالنحويون بالعرب لاحقون، وبالأميين منهم مؤتمون، ولمعانيهم آمون، وعلى سمتهم آخذون، كل من فرق له عن عِلة صحيحة، وطريق نَهْجة، كان أبا عمرو نفسه، وخليل فكره، ذلك بأن النحو علم كريم ذو طبيعة اجتهادية، مَنْبَهَة للحس، مَشْجَعَة للعقل، هدى الله سبحانه النحاة له (وأراهم وجه الحكمة في الترجيب له والتعظيم، وجعله ببركاتهم، وعلى أيدي طاعتهم خادما للكتاب المنزل، وكلام نبيه المرسل، وعونا على فهمهما، ومعرفة ما أمر أو نهي عنه الثقلان منهما)[2].

إن النحو (تسديد الذهن للتمييز بين الاستقامة في الكلام والإحالة)[3]. وإنما السداد في الشورى.

النحو شورى:

أحسب أن العلوم العربية والشرعية كانت حينا من الدهر شورى، بين العلماء العاملين والطلبة المقبلين، فإن جلّة المتقدمين كانوا يتدارسون أمور علوم العربية في الحلقات، بالمساجد والبيوتات، وربما في البساتين وعلى الطرقات، فقد ذكر ابن النديم أنه قرأ بخط أبي العباس ثعلب: اِجتمع على صنعة الكتاب اثنان وأربعون إنسانا منهم سيبويه [4]، فسيبويه بمعونة أساتذته خاصة الخليل (جمع شعاعه، وشرع أوضاعه، ورسم أشكاله، ووسم أغفاله، وخلج أشطانه، وبعج أحضانه، وأفاء فوارده.)[5]

---

[1]- حتى إن مجرد الاستماع كان حجة ومَحجة (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) سورة التوبة الآية 6.

[2]- الخصائص لابن جني 190/1.

[3]- أبو الحسين ابن الطراوة للبنا ص66.

[4]- الفهرست 31-32.

[5]- الخصائص 308/1-309.

لقد ظهر الكتاب خلقا سويا، قريبا من الكمال قويا، حتى نعت بقرآن النحو، من ركبه ركب البحر، فأكبره القوم حتى زعم المديني أن من أراد أن يكتب في علم النحو بعده فليستحي. وما ذاك إلا لأثره الجلي، وأسره الخفي، وسلطانه القوي، ظناً منه أن ليس إلا التراجع بعد التناهي.

جنون النحو:

افتتن الناس بالكتاب، وفتنوا بالنحو، فأجنوه، فما أن قضى سيبويه نحبه، بُعَيْدَ مناظرته في المسألة الزنبورية، حتى أخذت أبا سعيد بن مسعدة الأخفشَ العزةُ والعصبية، فقام ينتصر لزميله من نده، فوافى الكسائي ببغداد، وفي مسجده، وبين يدي تلاميذه: الفراء والأحمر وابن سعدان وغيرهم، سأله عن مائة مسألة، فأجاب الكسائي عنها بجوابات في جميعها خطأه، فالكسائي فطن له فاسترضاه، ثم احتال عليه فالكتاب استقرأه، ولقد استجاب له الأخفش وعلَّمه، هو وصحبه، فكان هذا للخلاف بوابة.

وأوشك الأخفش أن يتنكر لخليليه: الخليل وسيبويه، بما جد من سماع لديه، وطفق ينفث في النحو بملء فيه، ففتح باب الخلاف على مصراعيه، ونشأ المذهب الكوفي، وأخذ يناهض نظيره البصري، ثم اشتد وقوي، وعاد مدرسة تغري، لها صدى ودوي. ثم تغالبت المدرستان... وخَلَف الأعلام خَلْف خلط المذهبين، وأدلى في النحو بدلاء، لهم فيها أوهام وآراء، وامتازوا عن هؤلاء وهؤلاء، وصار يتكلم في النحو كل من شاء، من الأدباء والشعراء، ومن المتكلمين والفقهاء، من الأحداث والنبغاء، ومن العلماء والدخلاء، فما أبقوا للنحو حرمة حتى لكأنه أنحاء.

إن الخطب جلل تناثرت الجزئيات والمسائل، وكثرت المفاريد والغرائب، وتزاحمت النكت والطرائف، وتناظرت الأغراض والمقاصد، واستعصى الطلب، وعز البحث عما فيه يرغب، لكثرة ما كُتب وانتصَب، أو أغرى واغترَب، في الشرق والغرب، في كتب المجالس والأمالي، وفي شروح الدواوين وأبيات المعاني، ناهيك بكتب المفسرين، ومصنفات الأصوليين، بله كتب فقه اللغة والنحويين، فترجح النحو بين الغاية والوسيلة.

النحو غاية:

أحسب أن النحو أنحاء بحسب المخاطَب به، فثمة نحو في كتيبات للمبتدئين كتبت، من أشهرها جمل الزجاجي، ولمع ابن جني، وواضح الزبيدي، وتفاحة ابن النحاس، فإن هذه المختصرات وأشباهها تعنى بما لا يسع

أحدهم جهله من هذا الفن، إذ النحو قياس يتبع، وبه في كل أمر ينتفع، صناعة إذا علمت كملت، فهي كتب لا تلتفت غالبا إلى ما قل وشذ، ولا إلى ما كان لغة أو ضرورة عد، إلا قيلا قليلا.

على أن مصنفات أخرى صنفت للشادين، ولمن شامَّ النحو من المتأدبين، يرتقون بها درجات في علوم الآلة، وفي انتحاء سمت العربية، ومن أبرزها أصول ابن السراج، ومفصل الزمخشري، وشروح ألفية ابن مالك، فإنها زُبُرٌ عقلت النحو، وآذنت بالختم عليه. مَن فقهها بحق ارتقى إلى درجة الاجتهاد، وانتهى إلى مصاف العلماء، وقد يُدَخَّر لبعض من تأخر، ما عسر على كثير ممن تقدم.

ولا جرم أن كتاب سيبويه، ومقتضب المبرد من المتقدمين؛ وتسهيل ابن مالك، وارتشاف أبي حيان، ومغني ابن هشام من المتأخرين، كتب أي كتب، فاقت غيرها، وتكاملت ذات بينها، وصفا للعربية وخصائصها، وبيانا لسحرها وأسرارها، وإن كانت لتشفي إلا أنها تغري، وبضرورة التماس المعاني والمرامي تنادي. فالنحو فيها أداة، وهو إلى فهم النصوص مِرقاة...

النحو وسيلة:

ربما كان أبو عمر الجرمي أول من نبه على وسيلية النحو في معالجة النصوص ومدارستها، فقد أعلن قديما أنه ما فتئ يفتي الناس في الفقه الشرعي من كتاب سيبويه[1].

على أن الأسنوي وهو من متأخري النحويين، ومتفقهي الأصوليين، قد خرَّج الفروع الفقهية على الأصول النحوية في كوكبه الدّري[2].

---

[1]- (و المراد بذلك أن سيبويه وإن تكلم في النحو فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، و لم يقتصر على بيان أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ونحو ذلك) الموافقات للشاطبي83/4.

[2]- فالأسنوي يقرر المسألة النحوية موجزة مختصرة، ثم يعقبها بالفروع الفقهية التي تخرج عليها، والكتاب كله أمثلة فلا داعي لحشرها هنا، ويكفي التأكيد على أن فيه من ملح النحو الشيء الكثير.

ولا عجب أن يجزم الرازي بأن تَعلُّم النحو من الواجبات الدينية، لأن الشريعة عربية، ولا سبيل إلى معرفتها إلا بالنحو، وما لا يتم الواجب المطلق إلا به- وهو في مقدور المكلف- فهو واجب[1]، فالافتقار إليه بيِّن، والأخذ به متعيِّن.

لقد عُرف النحو العربي بكثرة المشتغلين به، إلا أن قلة قليلة هي التي أعربت عن فائدته، وأشارت إلى ثمرة الأخذ بأسبابه، ونبهت عن جنى فقهه، وأخذه بحقه وعلى أتمه؛ وحسب هذا المقام تعريفان لا يحتاجان إلى تعليق أو بيان:

أحدهما للشاطبي قال: (هو في الاصطلاح علم بالأحوال والأشكال التي بها تدل ألفاظ العرب على المعاني)[2].

والثاني لأبي سعيد الفرغاني وعدَّه (صناعة علمية، ينظر بها أصحابها في ألفاظ العرب، من جهة ما يأتلف، بحسب استعمالهم، لتعرف النسبة بين صيغة النظم وصورة المعنى، فيتوصل بإحداهما إلى الأخرى)[3].ولقد كان علم النحو عند ابن هشام (في العلوم كالطراز، به تحل مقفلات الألغاز، ويتضح ما في التتريل من الإيجاز ودرجة الإعجاز)[4].

قصور النحو:

قِصَرُ النحو كلمة حق، لا أريد منها الطعن فيه، ولا هدم بنيانه، فلا تزال تطلع عليه، ثابت البنيان، قائم الأركان، بَرَاءٌ من أدواء علوم اللسان في هذا الزمان، فإنها تغالبه فيغلبها، مستعليا على ما فيها من نقصان، تلفظه خصائص العربية، ويرفضه سمتها، وما امتاز به لسانها من إعراب وبيان.

[1]- تذكرة النحاة لأبي حيان الأندلسي ص 668.

[2]- ويقصد بالأحوال وضع الألفاظ بعضها مع بعض في تركيبها للدلالة على المعاني المركبة، وبالأشكال ما يعرض في أحد طرفي اللفظ أو وسطه أو جملته من الآثار والتغييرات التي بها تدل ألفاظ العرب على المعاني. المقاصد الشافية في شرح الكافية للشاطبي 17/1 .

[3]- الاقتراح للسيوطي ص:23

[4]- مقالات هامة لابن هشام ص:45

إن النحو وإن سما وعلا، إلى درجات عُلَى، فإنه فرع قاصر، وأنَّى له أن يتحكم في أصل كامل، فلا يحيط باللسان العربي إلا نبي، فمن خطَّأ قرَّاء القرآن هو الخاطئ، ومن لحَّن رُواة الشعر وعلماءه هو اللاحن، ومن ضعَّف حفاظ الحديث النبوي وضباطه هو الضعيف، إن الأمر دين.

هذا. وقد سئل عيسى بن عمر، وهو ممن بعج النحو، ومد قياسه، وشرح علله... عن النحو، أيسع كلام العرب أجمع؟ فما كان جوابه إلا: لا،لا، وحاجَّه السائل الشاهد: كيف تخالف العرب وهم الحجة؟ فسُقط في يده، ورد يده في فمه، ثم فكر وقدر، وكان ذا بصر، فقال أعمل على الأكثر[1]، رحمه الله أنصف وأعذر، بوعي منه أكبر؛ فأرسلها كلمة صدق بالغة الأثر، باقية لمن أراد أن يدَّكر، أو يعيد النظر، ويستقبل من الأمر ما استدبر. ويبحث عن النحو في أصول سماعية وفي مصادرَ لم يكتب لها أن تشهر.

النحو في غير كتبه:

النحو في مصادر الثقافة العربية والإسلامية كثير. وهو جليل القدر، غزير النفع، يصحح ويرجح، يرفع الإشكال ويحل الأقفال، وهو بحاجة إلى جهد جديد، يبدئ فيه الباحث الحذق ويعيد، أو يمعن النظر فيه وينعمه ببصر حديد، وقلب شهيد، بأن منه ما هو شيق لذيذ، قد تفلت من أسر القواعد، وتحصن بحصانة المقاصد، وإن العالم المنقب ليجد من الطرائف والفوائد، ومن النكت والفرائد الشيء الكثير- يجده في كتب فقه اللغة وأصول الفقه، في كتب الشروح: شروح الشواهد النحوية والبلاغية، وشروح الدواوين الشعرية، وشروح الأحاديث النبوية.- يجده في كتب التفسير، وكتب توجيه القراءات، والكتب التي عنيت بأسلوب القرآن ونظمه وإعجازه.

نحو المغني نحو بيان:

ذكر ابن خلدون في المقدمة أن ابن هشام أنحى من سيبويه قال : كأنه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني، واتبعوا مصطلح تعليمه، فأتى من ذلك بشيء عجيب، دال على قوة ملكته واطلاعه.

[1]- طبقات الزبيدي ص:45 والمزهر 184/1-185

وأنه في المغني استوفى أحكام الإعراب... وأشار إلى نكت إعراب القرآن، وضبطها بأبواب وفصول وقواعد... وأنه استولى على غاية تلك الصناعة، لم تحصل إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتهما... ودل أن الفضل ليس منحصرا في المتقدمين، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا نادر من نوادر الوجود [1].

وإنها لشهادة من علاّمة مؤرخ معاصر، شاهد على العصر، تؤكد اعتزاز الرجل بمغنيه، وتحديثه بنعمة ربه عليه، إذ قال في خطبته: (دونك كتاب تشد الرحال فيما دونه، وتقف عنده فحول الرجال ولا يعدونه، إذ كان الوضع في هذا الغرض لم تسمح قريحة بمثاله، و لم ينسج ناسج على منواله)[2].

إن مغني ابن هشام عَلَمٌ من الأعلام، واسم على مسمى، مكانته عالية بين الكتب[3]، فهو ثمرة المشْيَخَة، وخلاصة التجربة، كتبَه وهو مجاور بالحرم الشريف في مكة، وخاطب به متعاطي التفسير والعربية جميعا[4]. قد يُعد نحوه تفسيرا تجاوزا فهو نحو بيان، وذو دلالة؛ دليل ذلك ما امتاز به من جدة ترتيبه، ومن بلاغة تجميعه، ثم في إعرابه عن قصد الخطاب وأغراضه. فضلا عن حسن تصحيحه أو ترجيحه، وما إلى ذلك من أمور توحي بقوة تفرده.

جدة ترتيب المغني:

ترتيب مغني ابن هشام جديد جديد، قائم على المعنى، والمعنى أعز ما يطلب، والقاسم المشترك بين علوم الشريعة واللغة والأدب. فالباب الأول في تفسير المفردات وذكرِ أحكامها؛ وأحسب أن الاستهلال بكلمة تفسير عنوانا لَذو دلالة قوية، موحية بأشياء دالة على مرامي معنية، وهي ترجمة غير مألوفة، ولا هي معهودة في عناوين الأبواب والفصول في كتب النحاة[5].

1- مقدمة ابن خلدون ص:532-547.

2- المغني اللبيب لابن هشام ص:12.

3- كتب ابن هشام كسائر الكتب النحوية منها: ما كتب للمبتدي، وما كتب للشادي، وما كتب للمنتهي... فشتان ما بين قطر الندى وبل الصدى، وبين شذور الذهب، وبين أوضح المسالك، وبين المغني. فقطر الندى وبل الصدى قطر فحسب. والشذرات قوَّتِ القطرات وأجرتها بللا نحو أوضح المسالك. فأوضح المسالك غدا توضيحا. التوضيح اتضح به الميسم، فجرى عيونا في مغني اللبيب عن كتب الأعاريب.

4- المغني ص:853.

5- من أجل ذلك اعتبر حاجي خليفة الحديث عن حروف المعاني فرعا من فروع علم التفسير.

ويقصد بالمفردات الحروف وما تضمن معناها من الأسماء الشبيهة بالحروف، ومن أفعال المعاني الناقصة التصرف، فالوجهة الأدوات، والحروف العلامات [1]. وإنها للأصلُ في تأدية المعنى، فما من اسم أو فعل أتى لمعنى إلا أشبه الحرف، أو تضمن معناه ليأخذ حكمه، ويحمل دلالته، وينخلع عن بعض ما هو له، بما صار له.

على أن ابن هشام لم يرتب هذا الباب ترتيب سائر النحويين، بل عدل عنه إلى صنيع المعجميين حيت الترتيب الألف بائي؛ قد خص كل حرف بمبحث، المبحث له مداخل، وهي تقل أو تكثر حسب قوة استعماله وضعفه، فينتهي القارئ وقد انطبع في ذهنه قاموس لمعاني الحروف، ووظائفها، ووجوه استعمالها: في تواردها وترادفها، وفي تداخلها وتقارضها، وفي توافقها واشتراكها، ونيابة بعضها عن بعض...

و الباب الثاني خاص بالجمل، وهي ذات أساس معنوي أصيل؛ يجعلها قسيمة للحرف في تأدية المعنى، أو نظيرة له في ذلك. فأما الجمل التي لا محل لها من الإعراب، فقدمت لأصالتها في هذا المجال ، فهي كالمرتجل ابتداء، لا تنحل إلى مفرد ولا تؤول به، بل إن حق معانيها أن تؤدى بالحروف يشهد لذلك الاشتراك بينهما، فثمة حروف ابتداء واستئناف وتفسير واعتراض تقابلـــــها الجملة الابتــدائية والاستئنافية والتفسيــــرية والاعـــــتراضـــــية؛ ثم سائر الجمل ملحوظ فيها المعنى الحرفي بقوة، ولا تنفصل عنه البتة، والمقام لا يسمح بالتتبع والتفصيل المرة.

وأما الجمل التي لها محل من الإعراب فإن تأويلها بمفرد يجعل معناها مناظرا المعنى الحرفي، وهو المعنى الوظيفي الذي يؤدى بالحركات؛ فالحركات أمارات على وظائف: من فاعلية أو مفعولية، ومن ابتداء أو خبرية، ومن إضافة أو تبعية،ومن شرط أو جواب [2].إلخ

---

[1]- وقد عاد الحديث عن الحروف والأدوات عند المتأخرين فنا قائم الذات، ألفت فيه مؤلفات. فالرماني له كتاب منازل الحروف، والقزاز له كتاب الحروف، والهروي له كتاب الأزهية في علم الحروف، والمالقي له كتاب رصف المباني في حروف المعاني، والمرادي له الجنى الداني في حروف المعاني، وابن القيم له معاني الأدوات والحروف. على أن من علماء الأصول، وعلماء علوم القرآن من كتب عن الحروف من جانب الدلالة كالغزالي في المنخول، والزركشي في البرهان والسبكي في جمع الجوامع، والسيوطي في الإتقان، وفي معترك الأقران. إلخ

[2]- والحركات أبعاض حروف بل هي حروف عند الخليل... ثم إن من العلماء كابن عطية في محرره، وأبي حيان في بحره، والسيوطي في إتقانه أو معتركه قد ذكر أن الرفع في المصادر التي هي مصادر أصلية ومفاعيل مطلقة علامة على الوجوب، وأن النصب علامة على الندب، وشواهد ذلك قوله تعالى: (وهل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون) سورة الذاريات الآية 24-25 فالبدار بالسلام مستحب ومندوب، والرد واجب لقوله تعالى:(وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) سورة النساء الآية85.

والباب الثالث في شبه الجملة وتعلقها، والتعلق الارتباط المعنوي الذي في الظرف وفي الجار والمجرور.

والباب الرابع فيما يكثر دوره، ويقبح بالمعرب جهله، عقل به ابن هشام جملة من الفروق. وضبطُ الفروق يحصن المعنى ويرفع اللبس أو يُعيّنه ويجنبه.

والباب الخامس في الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها، وإنه لباب يصون المعنى الذي يعرب عنه النحاة بلغيّاتهم الفنية، أو بمصطلحاتهم التقنية.

والباب السادس في الكشف عن أمور اشتهرت بين المعربين، والصواب خلافها. وقد حدد معظمها ومثل لها، ونصحَ المعربَ أن يختار من العبارات أوجزَها وأجمعَها للمعنى.

والباب السابع في كيفية الإعراب وما على المعرب أن يحترز منه، ويتنبه إليه. فهو صون للمعنى وعناية به.

والباب الأخير إحدى عشرة قاعدة كلية، يتخرج عليها ما لا حصر له من الصور الجزئية. ومن هذه القواعد: التضمين والتغليب والتوسع والتقارض والقلب... وهي أيضا ترتبط بالمعنى، وتدندن عليه وحوله.

تلك قراءة عمودية لأبواب المغني فالأبواب جديد ترتيبها، قوي رعيها المعنى، وزاد من حسنها ما تشير إليه القراءة الأفقية من بلاغة الإيجاز في الجمع والتجميع للأمور ذات الوجهة الواحدة.

بلاغة تجميع المغني:

زمان ابن هشام زمان جمع وتجميع بالإجماع، إلا أن المغني وإن استكثر، فما كرر، بل اختصر واقتصر، وما قصر، ويعضد هذا ما ذكر وسطر، من نصه على أعداد لافتة للنظر، وإليك نماذج على سبيل المثال لا الحصر:

1- روابط الجملة عشرة...[1]

2- الأشياء التي تحتاج إلى رابط أحد عشر...[2]

1- المغني ص:647-652.

2- المغني ص:653-663.

3- الأمور التي لا يكون الفعل معها إلا قاصرا عشرون... [1]

4- الأمور التي يتعدى بها الفعل القاصر ثمانية...[2]

وأحسب أن المغني في هذه النماذج وغيرها يصدر عن نحو أحسه، وما أفصح عنه، لكن أومأ إليه بلفت الانتباه إلى قصد الخطاب أو غرضه.

قصد الخطاب في المغني:

والعناية بالمقاصد مطلب جليل قلَّ من قصده، ولا يُعلم كتاب تمحض له، وكأن ذلك فضول في النحو، أو تطفل على صناعة علم آخر هو أولى بالاهتمام له، وابن هشام في المغني أَمَّه، إلا أن الإشارة إليه، والعناية به تأتي عرضا أو استطرادا، أو ضرورة من أجل حسم خلاف، أو ترجيح رأي، أو دحض آخر ... ومن أمثلة ذلك:

1- ضمير الفصل المسمى عمادا فائدته ثلاثة أمور...[3]

2- لام الابتداء فائدتها أمران...[4]

3- (بل) يقال إنها حرف إضراب، والصواب حرف استدراك وإضراب فإنها بعد النفي والنهي بمنزلة(لكن) [5].

4- الغرض من الصفة التخليص والتخصيص.[6]

---

[1]- المغني ص: 674-677.

[2]- المغني ص: 678-683.

[3]- المغني ص: 644-645.

[4]- المغني ص:300.

[5]- المغني ص:857

[6]- المغني ص:739.

ويلحق بهذا الأمر ويكمله استعارته مصطلحات من علمي البيان وأصول الفقه رأى أنها تفي بالغرض أكثر، قال مثلا: قصر صفة على موصوف [1]، ومفهوم مخالفة ومفهوم موافقة [2]، والمطلق والمقيد [3] وهلم جرا.

تصحيح وترجيح المغني:

بلغ النحو ابنَ هشام وقد نضج واكتمل، يبتغي الختم والتمام، وهو يزخر بالخلاف وما له من ثمار... فالنحاة سواد عظيم من المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين، وكأن ابن هشام، وهو مجاور بالحرم، يكتب بيمينه المغني، ومن بين يديه وخلفه وشماله كتب التراث كلها، على اختلافها، وتنوع مشاربها، زمانا ومكانا، اختلفت شرعة ومنهاجا، ينتقي منها ما يشاء. وأجدني أمامَ الرصيد الهائل أروم الاقتضاب لا الإفاضة، بإبراز بعض مما صححه أو رجحه عند الأصوليين، والبلاغيين، والمحدثين، والنحويين، مثالا، مثالا واحدا فحسب، وذلك قوله:

1- (زعم جماعة من الأصوليين والبيانيين أن (ما) مع (إن) نافية، وأن ذلك سبب إفادتها الحصر، قالوا: لأن (إن) للإثبات، و(ما) للنفي، فلا يجوز أن يتوجها معا إلى شيء واحد... وهذا البحث مبني على مقدمتين باطلتين بإجماع النحويين، إذ ليست (إن) للإثبات، وإنما هي لتوكيد الكلام إثباتا كان... أو نفيا... وليست (ما) للنفي بل هي بمنزلتها في أخواتها: ليتما، ولعلما، وكأنما...، ولم يقل ذلك الفارسي في الشيرازيات ولا في غيرها، ولا قاله نحوي غيره) [4]

2- قال البيانيون إذا وقعت (كل) في حيز النفي، كان النفي موجها إلى الشمول خاصة، وأفاد بمفهومه ثبوت الفعل لبعض الأفراد...، وإن وقع في حيزها اقتضى السلب عن كل فرد...، ويشَكِّل عليهم قوله

1- المغني ص:59.

2- المغني ص:341.

3- المغني ص: 73.

4- المغني ص:406-407.

تعالى (والله لا يحب كل مختال فخور) [1]... قال ابن هشام: الصواب ما قاله البيانيون: والجواب عن الآية أن دلالة المفهوم إنما يعول عليها عند عدم المعارض، إذ دل الدليل على تحريم الاختيال والفخر مطلقا [2].

3- أجرى ابن مالك (ثم) مجرى الفاء والواو في جواب نصب الفعل المضارع بها (بعد الطلب... فتوهم الإمام أبو زكرياء النووي – رحمه الله- أن المراد إعطاؤها حكمها في إفادته معنى الجمع، فقال: لا يجوز النصب... قال ابن هشام: وإنما أراد ابن مالك إعطاءها حكمها في النصب لا في المعية أيضا... ثم ما أورده إنما جاء من قبل المفهوم لا المنطوق، وقد قام دليل آخر على عدم إرادته) [3].

4- اختلف النحاة في (ضربي زيدا قائما)... وترتب على هذا الخلاف إحدى عشرة مسألة... اختلفوا في جميعها [4]. وحسم ابن هشام الخلاف فقرر(أن من مثل الحالية قوله (ص) "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد". وهو من أقوى الأدلة على الانتصاب قائما في (ضربي زيدا قائما) على الحال لا على أنه خبر لـــ(كان) محذوفة إذ لا يقترن الخبر بالواو) [5].

إن هذه الأمثلة قليل من كثير، لبى حاجة في النفس، وبقيت أخرى في الحس، يمكن أن تتلمس بالتفحص، لكن -تأدبا مع القرآن- لم يصرح بها تصريحا، ودعا إليها تلميحا، وهي نحو القرآن.

نحو القرآ ن في المغني:

سئل ابن هشام ألاَ تكتب كتابا في التفسير؟ فقال: أغناني عنه المغني. ولقد ذكر ابن هشام فيه- وهو الكتاب الذي لم يبلغ مكانته كتاب آ خر في عدد الشواهد القرآنية- ذكر أن القرآن الكريم يُختار له، ونقل عن أبي سعيد الفارسي أن القرآن جميعه كالسورة الواحدة، والسورة كالآية، وكل قراءة بمثابة آية.

1- سورة الحديد الآية 23.

2- المغني ص:265-266.

3- المغني ص:161.

4- همع الهوامع للسيوطي 105/1-106 وشرح المفصل 96/1-97 المغني ص:537.

5- المغني ص: 537

وقد اقترح مصطلحات بديلة هي أليق بالقرآن المجيد منها: العطف على المعنى عوض العطف على التوهم، والتأكيد بدل الحشو والزيادة والصلة، ومن يعلم بدل من يعقل... على أن الذي يجب التأكيد عليه أن ابن هشام نثر في المغني أحكاما شتى لنحو القرآن[1] منها:

1. ليس في التتريل نداء بغير (يا) [2]
2. ليس في جميع القرآن وقف واجب[3]
3. زعم ابن مالك أن (بل) لا تقع في التتريل إلا على معنى الانتقال [4]
4. الفعل (زعم) لم يقع في التتريل إلا على (أن) وصلتها [5]
5. الخبر بعد (ما) لم يأت في التتريل مجردا من الباء إلا وهو منصوب [6]

كما أكد أنه لا يليق تخريج الآي على ما كان في غاية الشذوذ [7]، ولا الحمل على الضرورة [8]، أو القليل والضعيف [9] وهلم جرا.

[1] - تتبع ابن الضائع الأحكام التي وقعت في آخر الآي مخالفة للقواعد مراعاة للمناسبة فعثر منها على نيف عن الأربعين حكما. الإتقان للسيوطي 99/2-100.

[2] - المغني ص:18.

[3] - المغني ص:502.

[4] - المغني ص:152.

[5] - المغني ص: 774.

[6] - المغني ص: 776.

[7] - المغني ص:208.

[8] - المغني ص:394.

[9] - المغني ص:661.

وفي ا لختام إن نحو القرآن جدير بأن يكتب فيه أولوا العزم والقوة. ثم علم النحو لا يستغنى عنه عـــلم مـــن العلوم الخادمة للقرآن، وإن في كتب علوم الآلة عامة، والنحو خاصة، لتفسير هام لم يضطلع بجمعه أحد، ولا بد من تضافر الجهود لإخراجه إلى الوجود، وإنه لأمل منشود.كما ينبغي التفكير في إقامة معجم لمعاني التراكيب النحوية، مشفوعا بآخر يعنى بالأغراض والمقاصد من المفاهيم النحوية فإنه لم يصنف إلى الآن والله أعلم.

هذا ما من به الله جل جلاله وحسبي أني اجتهدت ونبهت، وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب والحمد لله رب ا لعالمين.